سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

{ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ *الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ } [1]

{ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ } أي : ألجأ إليه وأستعين به ، و { رَبِّ النَّاسِ } الذي يُربيهم بقدرته ومشيئته وتدبيره ، وهو رب العالمين كلِّهم والخالق للجميع

{ مَلِكِ النَّاسِ } أي : الذي ينفذ فيهم أمرُه وحكمه وقضاؤه ومشيئته دون غيره .

{ إِلهِ النَّاسِ } أي : معبودهم الحق وملاذهم إذا ضاق بهم الأمر ، دون كل شيء سواه . والإله المعبود الذي هو المقصود بالإرادات والأعمال كلها .

{ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ } أي : الشيطان ذي الوسوسة . وقد زعم الزمخشري ومن تبعه ، أن الوسواس مصدر أريد به الموسوس أو بتقدير : ذي . وحقق غير واحد أنه صفة كالثرثار ، وأن فعلالاً مصدر : فعلل بالكسر ، والمفتوح شاذ ، وقد بسط الكلام في ذلك الإمام ابن القيم في " بدائع الفوائد "

{ الْخَنَّاسِ } أي : الذي عادته أن يخنس – أي : يتأخر – إذا ذكر الْإِنْسَانُ ربَّه ، لأنه لا يوسوس إلا مع الغفلة ، وكلَّما تنبَّه العبدُ فذكر اللهَ خنس .

{ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ } أي : بالإلقاء الخفيّ في النفس ، إما بصوت خفيّ لا يسمعهُ إلا من ألقي إليه ، وإما بغير صوت .

قال ابن تيمية : و الوسوسة من جنس الوشوشة بالشين المعجمة ، يقال : فلان يوسوس فلاناً ، و قد وشوشته إذا حدثه سراً في أذنه ، وكذلك الوسوسة ، ومنه وسوسة الحليّ ، لكن هو بالسين المهملة ، أخص .

وقال الإمام : إنما جعل الوسوسة في الصدور ، على ما عهد في كلام العرب من أن الخواطر في القلب ، والقلب مما حواه الصدر عندهم ، وكثيراً ما يقال : إن الشك يحوك في صدره ، وما الشك إلا في نفسه وعقله ، وأفاعيل العقل في المخ ، وإن كان يظهر لها أثر في حركات الدم وضربات القلب وضيق الصدر أو انبساطه .

وقوله تعالى : { مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ } بيان للذي يوسوس على أنه ضربان : ضرب من الجِنَّة وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم ، وإنما نجد في أنفسنا أثراً ينسب إليهم ، وضرب من الإنس كالمضلِّلين من أفراد الْإِنْسَانْ ، كما قال تعالى : { وَكَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً } [الأنعام : 112] ، وإيحاؤهم هو وسوستهم .

قال ابن تيمية : فإن قيل : فإن كان أصل الشر كلّه من الوسواس الخناس ، فلا حاجة إلى ذكر الاستعاذة من وسواس الناس ، فإنه تابع لوسواس الجن ؟ قيل : بل الوسوسة نوعان : نوع من الجن ، ونوع من نفوس الإنس . كما قال : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ } [ق : 16] ، فالشر من الجهتين جميعاً . والإنس لهم شياطين كما للجن شياطين .

وقال أيضاً : الذي يوسوس في صدور الناس نفسه لنفسه ، وشياطين الجن وشياطين الإنس ، فليس من شرط الموسوس أن يكون مستتراً عن البصر ، بل قد

يشاهد .

لطائف :

الأولى : قال ابن تيمية : إنما خص الناس بالذكر ؛ لأنهم المستعيذون ، فيستعيذون بربهم الذي يصونهم ، وبملكهم الذي أمرهم ونهاهم وبإلههم الذي يعبدونه من شر الذي يحلُّ بينهم وبين عبادته ، ويستعيذون أيضاً من شر الوسواس الذي يحصل في نفوس منهم ومن الجِنَّة ؛ فإنه أصل الشر الذي يصدر منهم والذي يرد عليهم .

وقال الناصر : في التخصيص جرى على عادة الاستعطاف . فإنه معهُ أتمّ .

الثانية : تكرر المضاف إليه وهو : الناس باللفظ الظاهر ؛ لمزيد الكشف والتقرير والتشريف بالإضافة ، فإن الإظهار أنسب بالإيضاح المسوق لهُ عطف البيان ، وأدل على شرف الْإِنْسَانْ . وقيل : لا تكرار لجواز أن يراد بالعام بعض أفرادهُ ؛ فـ : الناس الأول بمعنى الأجنة والأطفال المحتاجين للتربية ، والثاني الكهول والشبان ، لأنهم المحتاجون لمن يسوسهم ، والثالث الشيوخ لأنهم المتعبدون المتوجهون لله .

قال الشهاب : وفيه تأمّل .

الثالثة : في تعداد الصفات العليا هنا إشارة إلى عِظَم المستعاذ منه ، وأن الآفة النفسانية أعظم من المضار البدنية ، حيث لم يكرر ذلك المستعاذ به في السورة قبلُ ، وكررهُ هنا إظهاراً للاهتمام في هذه دون تلك . نقله الشهاب .

الرابعة : قال ابن تيمية : الوسواس من جنس الحديث والكلام ؛ ولهذا قال المفسرون في قوله :

{ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ } قالوا : ما تحدث به نفسه . وقد قال صلى الله عليه وسلم : < إن الله تجاوز لأمتي ما تحدِّث به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به > ، وهو نوعان : خبر وإنشاء ، فالخبر إما عن ماض وإما عن مستقبل ، فالماضي يذكره والمستقبل يحدثه بأن يفعل هو أموراً ، أو أن أموراً ستكون بقدر الله أو فعل غيره ؛ فهذه الأمانيّ والمواعيد الكاذبة ، والإنشاء أمر ونهي وإباحة .

الخامسة : قال ابن تيمية : الفرق بين الإلهام المحمود وبين الوسوسة المذمومة هو الكتاب والسنة ، فإن كان مما ألقى في النفس مما دل الكتاب والسنة على أنهُ تقوى لله ، فهو من الإلهام المحمود ، وإن كان مما دلّ على أنهُ فجور ، فهو من الوسواس المذموم ، وهذا الفرق مطرد لا ينقض .

وقد ذكر أبو حازم في الفرق بين وسوسة النفس والشيطان ، فقال : ما كرهتهُ نفسك لنفسك فهو من الشيطان ؛ فاستعِذ بالله منه ، وما أحبَّتهُ نفسك لنفسك فهو من نفسك فانهها عنهُ .

السادسة : قال الإمام الغزالي في " الإحياء " في بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كلِّ ركن وشرط من أعمال الصلاة ، ما مثاله : وإذا قلت :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فاعلم أنه عدوك ومرصد لصرف قلبك عن الله عز وجل ؛ حسداً لك على مناجاتك مع الله عز وجل وسجودك له ، مع أنه لعن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفَّق لها ، وإنَّ استعاذتك بالله سبحانه منه بترك ما يحبه ، بما يحب الله عز وجل لا بمجرد قولك ؛ فإن من قصده سبُعٌ أو عدوٌّ ليفترسه أو ليقتله فقال :

أعوذ منك بهذا الحصن الحصين- وهو ثابت على مكانه ذلك- لا ينفعه ، بل لا يفيده إلا بتبديل المكان ، فكذلك من يتبع الشهوات التي هي محابُّ الشيطان ومكاره الرحمن ، فلا يغنيه مجرد القول ، فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عز وجل عن شر الشيطان ، وحصنه : لا إله إلا الله إذ قال عز وجل فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم

: < ولا إله إلا الله حصني ، فمن دخل حصني أمن من عذابي > . والمتحصن به من لا معبود له سوى الله سبحانه ، فأما من اتخذ إلهه هواه ، فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله عز وجل . انتهى .

وملخصه أن التعوذ ليس هو مجرد القول ، بل القول عبارة عما كان للمتعوذ من

ابتعاده بالفعل عما يتعوذ منه ، فكان ترجمة لحالهم . وهذا المعنى كان يلوح لي من قبل أن أراه في كلام حجَّة الإسلام ، حتى رأيته فحمدت الله على الموافقة .

السابعة : قال الإمام الغزالي في " الإحياء " أيضاً ، في بيان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس : ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها ، ما مثاله :

اعلم أن القلب في مثال قبَة مضروبة لها أبواب تنصبُّ إليه الأحوالُ من كل باب ، ومثالهُ أيضاً مثال هدف تنصبُّ إليه السهام من الجوانب . أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف السور المختلفة فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولا يخلو عنها . أو مثال حوض تصبُّ فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه . وإنما مداخل هذه الآثار المتجددة في القلب في كل حال ، إما من الظاهر فالحواس الخمس ، وإما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الْإِنْسَانْ ، فإنه إذا أدرك بالحواس شيئاً حصل منه أثر في القلب ، وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلاً بسبب كثرة الأكل وسبب قوة المزاج ، حصل منها في القلب أثر ، وإن كف عن الإحساس فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى وينتقل الخيال من شيء إلى شيء ، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر .

والمقصود أن القلب في التغير والتأثر دائماً من هذه الأسباب ، وأخص الآثار الحاصلة في الخواطر ، وأعني الخواطر ما يحصل فيه من الأفكار والأذكار ، وأعني به إدراكاته علوماً ، إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر ؛ فإنها تسمى خواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلاً عنها .

والخواطر هي المحركات للإرادات ، فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المنوي بالبال لا محالة . فمبدأ الأفعال الخواطر . ثم الخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك النية ، والنية تحرك الأعضاء . والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو للشر ، أعني إلى ما يضر في العاقبة ، وإلى ما يدعو إلى الخير ، أعني إلى ما ينفع في الدار الآخرة . فهما خاطران مختلفان . فافتقرا إلى اسمين مختلفين .

فالخاطر المحمود يسمى إلهاماً والخاطر المذموم ، أعني الداعي إلى الشر ، يسمى وسواساً . ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم أن كل حادث فلابد له من محدث ، ومهما اختلفت الحوادث دلَّ ذلك على اختلاف الأسباب ، هذا ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب . فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار ، وأظلم سقفه واسودّ بالدخان ، علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة ، وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان : فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكاً ، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً . واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخبر يسمى توفيقاً ، والذي به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغوائاً وخذلاناً . فإن المعاني المختلفة تفتقر إلى أسامٍ مختلفة ، والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى ، شأنه إفاضة الخير وإفادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف ، وقد خلقه وسخره لذلك . والشيطان عبارة عن خلق شأنهُ ضد ذلك ، وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء والتخويف عند الهم بالخير بالفقر ؛ فالوسوسة في مقابلة الإلهام . والشيطان في مقابلة الملك ، والتوفيق في مقابلة الخذلان .

ثم قال الغزالي : ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذِكر سوى ما يوسوس به ؛ لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان من قبل . ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به ، فيجوز أيضاً أن يكون مجالاً للشيطان . وذكر الله تعالى هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال ، ولا يعالج الشيء إلا بضده . وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبرؤ عن الحَوْل والقوة ، وهو معنى قولك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وذلك لا يقدر عليه إلا المتَّقون الغالب عليهم ذِكْرُ الله تعالى ، وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة . قال الله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ }

[الأعراف : 201] .

ثم قال : فالوسوسة هي هذه الخواطر ، والخواطر معلومة ؛ فإذن الوسواس معلوم بالمشاهدة ، وكل خاطر فله سبب ، ويفتقر إلى اسم يعرّفه ، فاسم سببهُ الشيطان ، ولا يتصور أن ينفك عنه آدميّ ، وإنما يختلفون بعصيانه ومتابعته ؛ فقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والإلهام ، والملك والشيطان والتوفيق والخذلان . انتهى .